دور مصر...
حديث هادئ مع التاريخ

مصر.. الدور.. الوظيفة

قبل ستمائة عام تقريبا كتب الشيخ الفقيه محمد بن عبد الله الطنجى المعروف بابن بطوطة، فى وصف مصر.. "هى أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد، مجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر، قهرت قاهرتها الأمم، وتملكت ملوكها نواصى العرب والعجم، كريمة التربة، ومؤنسة لذوى الغربة، ولها خصوصية النيل التى جل قدرها"

obeikan.com

obeikan.com

دعونا نضبط عدسات رؤيتنا على منظور سليم وحتى نضمن لكلامنا أكبر قدر من الموضوعية والإنصاف، فإن الحديث عن دور مصر وباستثناء متفرد يختلف تماما عن الحديث وبصفة العمومية عن أى دور لأية دولة، وحركته ونفوذه وتأثيره؛ لأن دور مصر له خصوصية، فهو الدور الركن فى هذا العالم.. دور يلفت الانتباه إلى أهمية البعد التاريخى للدور.. أهمية البعد الجغرافى للدور.. أهمية البعد الحضارى للدور.. وأهمية البعد الإنسانى للدور.. وهكذا يتسع الأفق وتتضح الصورة.. وفى كل هذا كان دور مصر متواصلا فوق جغرافية سياسية حية، ومع سنوات الهبوط والنهوض، وسنوات الضعف والارتقاء.

فمصر ومنذ بدايات عمر التاريخ لم تكن فقط مجرد دولة ترتكز على دور.. أو أنها دولة ترتكز على موقع.. ولكنها كانت محور الارتكاز بين ذراعى الدور والموقع.. وأدركت مصر منذ بدايات ما قبل التاريخ أن لها دورا.. وبالتحديد أن هناك دورا خلقت له أو خلق لها لا فرق.. وأن لهذا الدور موقعا متفردا أو أن لهذا الموقع دورا متفردا ـ لا فرق ـ ولذلك شهدت مصر أول تقنين فى التاريخ الإنسانى للحدود والتخوم ووضع تدابير الأمن لسلامتها فكان لملوك مصر قبل أربعة آلاف عام ثلاث عشرة قلعة لحماية الحدود الجنوبية وقلاع وحصون ومواقع حراسة على الجبهة الشرقية.. وترسيم الحدود فى هذا الزمن ومع بدايات عمر التاريخ كان لتأكيد سيادة مصر على أراضيها وضمان سلامتها وتنظيم حركة المرور بمراقبة الداخلين والخارجين لدولة تمتعت بالنفوذ السياسى وبالمركز التجارى والثقافى.. وفى كل هذا كان واضحا ترسيم جغرافية الدور المصرى داخليا وخارجيا وفى منظومة واحدة.

وإذا كانت مصر منذ بدايات ما قبل التاريخ قد أدركت أن لها دورا . . وأن هذا الدور هو أقرب من " الأقدار التاريخية " التى لا تستطيع معها الخروج عن أحكامها؛ لأن معنى ذلك خروج مصر عن جغرافية موقعها وعن تاريخها ـ فإنها لم يغب عنها أيضا أنها تستمد تأثيرها من هذا الدور . . وأن قوتها الأساسية فى هذا الدور الذى يمنحها قوة تأثير فاعل ونافذ يتجاوز حدودها الجغرافية . . وهى بذلك ـ كله ـ تنفرد بخصوصية النموذج البارز للدول التى تستمد تأثيرها من الدور ـ من حركة التاريخ وعبقرية المكان ـ وطبقا لتصنيف الكاتب الكبير الأستاذ محمد حسنين هيكل (كتاب: السلام المستحيل والديمقراطية الغائبة) فإن هناك دول طبيعة، ودول وظيفة، ودول دور . .

والنوع الأول . . دول تستمد تأثيرها من طبيعتها . . من الثروات الطبيعية فهى تملك من الأرض والموارد على هذه الأرض، ما يمكن لها ويعطيها أساسا لبناء قوتها . . ونموذج هذه الدول: الولايات المتحدة، الصين، البرازيل، الهند، وكل واحدة من هذه الدول شبه قارة . . أرض غير محدودة للزراعة، وثروات معدنية فى باطن الأرض، وإمكانية لبناء قاعدة صناعية متطورة، وبالطبع حجم كاف من البشر . .

والنوع الثانى . . دول تستمد تأثيرها من وظيفة كلفتها بها المعادلات الدولية والإقليمية . . ونموذج هذه الدول: سويسرا والنمسا، ولبنان مثلا وحيث يرتبط تأثير لبنان ـ بل وبقاؤه ـ بتراضى أطراف مختلفين فى المجال الدولى وفى المجال الإقليمى مع ضرورة وظيفته فى وسط المنطقة العربية . . وحين يختل تراضى الأطراف ينفجر الوضع فى لبنان!!

وهناك دول تستمد تأثيرها من دورها . . من التاريخ . . وإذا كانت

أرضها ومواردها ليست كافية، فإن مسار التاريخ وحركته أعطياها الفرصة لتكون قوة أكبر من مجرد خطوط حدودها. .مسار التاريخ وحركته جعلاها قوة إقليمية مؤثرة فى ما حولها سواء بانتمائها إليه عضويا أو التصاقها به لسبب من الأسباب. . وأن مصر هى النموذج البارز لهذا النوع من الدول ـ وربما كان الوحيد ـ الذى يستمد تأثيره مما حوله وبالانتماء إلى ما هو أكبر من مجرد حدوده. . ذلك هو الذى جعل مصر قوة إقليمية بعروبتها، بل أنه فى لحظة من اللحظات ـ وعلى قاعدة عروبتها ـ جعل منها قوة عالمية بمكانتها فى بعض حركات العصر الكبرى، كحركة التحرير الوطنى، وحركة عدم الانحياز، وحركة الوحدة الإفريقية وهكذا. .

. . . .

وتبقى الدول التى تستمد تأثيرها من طبيعتها ـ من ثرواتها الطبيعية وما تملك من موارد ـ تحت رحمة المتغيرات المناخية وحركة التوازنات الاقتصادية!! وتبقى الدول التى تستمد تأثيرها من "وظيفة" تقوم بها، تحت رحمة المتغيرات الدولية وحركة توازنات القوى!! أما الدول التى تستمد تأثيرها من دورها. . من التاريخ. . فهى وثيقة الصلة بديمومة وديناميكية حركة التاريخ التى لا تتوقف.

إذن مصر وبالدرجة الأولى دور، وهذا الدور له "حلم عربى" يشترك فيه بالانتماء مع شعوب أمته.

وهذه الحقيقة لم تكن غائبة عن وعى القوى الأوروبية التى حاصرت "محمد على" وضيقت عليه الخناق، ثم استطاعت ضربه وفرضت عليه معاهدة سنة ١٨٤٠ وهدفها إبعاد مصر نهائيا عن المشرق العربى!!

وهذه الحقيقة ـ أيضا ـ لم تكن غائبة عن مضمون رسالة البارون "روتشيلد" عميد البيت المالى اليهودى العتيد إلى اللورد "بالمرستون" رئيس وزراء بريطانيا فى ذلك الوقت ـ ١٨٤١ ـ ويقول فيها: "إن هزيمة محمد على وحصر نفوذه فى مصر ليست كافية الآن، هناك قوة جذب متبادلة بين العرب، وهم يدركون أن عودة مجدهم القديم مرهونة بإمكانيات اتصالهم واتحادهم.. أننا لو نظرنا إلى خريطة هذه البقعة من الأرض فسوف نجد أن فلسطين دائما هى الجسر الذى يوصل بين مصر وبين بقية العرب فى آسيا، وكانت فلسطين دائما هى بوابة من الشرق، والحل الوحيد هو زرع قوة مختلفة على هذا الجسر وفى هذه البوابة، لتكون هذه القوة بمثابة حاجز يمنع الخطر العربى ويحول دونه، والهجرة اليهودية إلى فلسطين تستطيع القيام بهذا الدور، وليست تلك خدمة لليهود يعودون بها إلى أرض الميعاد مصداقا للعهد القديم فقط.. ولكنها أيضا خدمة للإمبراطورية البريطانية ومخططاتها، فليس مما يخدم الإمبراطورية أن تتكرر تجربة محمد على سواء بقيام دولة قوية فى مصر أو بقيام اتصال بين مصر والعرب الآخرين.."!!

ولكن التجربة تكررت مع الزعيم الراحل جمال عبدالناصر، وغربت شمس الإمبراطورية البريطانية، وبدأ تيار المد القومى جارفا..

وتلك السطور من خطاب روتشيلد إلى رئيس الوزراء البريطانى فى شهر مارس ١٨٤١ تكشف عن حقيقة النوايا تجاه دور مصر.. وأن قوى السيطرة الأجنبية ـ ومعها إسرائيل بالطبع ـ تدرك تماما أن الأمة العربية تكتشف قدرها فى مصر.. وأن قدر مصر أن توجه حركة موازين القوى داخل أمتها.. وأنها "المبتدأ" لكل جملة عربية تعبر عن حركة الفعل

والموقف.. وأن تعبير "الشقيقة الكبرى" لم يكن يوما مجرد تعبير إنشائى عاطفى رسمته كلمات الأدباء أو رتبت صياغته إبداعات الشعراء، ولكن المعنى والمضمون يشير إلى الدور القيادى وإلى الموقع الذى يتحكم فى الموقف.. وإلى القدرات والإمكانيات والمخزون الحضارى الذى هيأ لمصر أن تمارس دورها وبتفويض تاريخى لقيادة حركة أمتها العربية.. وبمعنى أقرب لكلمات مسئول ليبى ـ أمين اللجنة الشعبية للثقافة والإعلام "نورى أحمد" ـ بأن مصر شاءت أم أبت هى صاحبة المركز والدور القيادى لهذه المنطقة..

ولكل هذا وغيره الكثير منذ زمن طويل فإن دور مصر هو المشكلة التى تطرح نفسها دائما أمام قادة إسرائيل وزعماء الصهيونية العالمية.. ومن الطبيعى أن تكون المحاولات ـ ودائما ـ لعزل هذا الدور عن محيطه العربى.. محاولات لكى يكون هذا الدور مهزوما من الداخل، أو أن يكون أسيرا لحالة من الإحباط واليأس، أو مصابا بالترهل والضعف؛ لأن أى "دور" بدون قوة يستند إليها وينطلق منها يصبح مجرد "فرقعة أصوات" تثير الشفقة أو السخرية.

وإذا كان دور مصر الذى تدعمه وتدفع به القوة والإمكانيات والطموحات قد أثار هواجس وقلق ثيران كثيرة هائجة، وعلى امتداد التاريخ ـ فأسرعت تدير لعبة التآمر للحجر على الطموحات والتطلعات، وحجز "الدور" متهالكا وراء الحدود المصرية.. فإن الوضع يختلف كثيرا بالنسبة لإسرائيل لأن ظروف وأسباب وأهداف "تأسيسها" تفرض عليها أن تكون قوة الردع والتحجيم فى مواجهة أية قوة عربية تلتقى معها على الخطوط المباشرة لجبهة الصراع.. وأن أى دور لا يمكن أن يكون لديه

الحق فى تعديل ميزان القوى، أو أن يناوئ ويناور، أو أن يتقدم لإدارة الأحداث داخل الساحة العربية..

....

....

وبأحكام وضرورات التاريخ والجغرافيا ـ معا ـ فإن الدور القائد والرئيسى على المسرح العربى هو الدور المصرى.. إذن كان لابد من تفريغ هذا الدور من قوته، وسحب هذه القوة إلى "المصيدة".. وأن يكون "الفخ" ضربة إجهاض موجهة إن لم تكن مدمرة لهذه القوة وعناصرها.. وهكذا كانت المواجهة الأولى بعد سنوات قلائل من تدشين الكيان الإسرائيلى ـ ١٨ عاما تقريبا ـ وكانت ملامح الصورة لمصر وقتئذ ـ مع منتصف الستينات ـ توحى ببشارات حقائق القوة، وكان دور مصر يشمل ساحة عربية ممتدة من المحيط إلى الخليج بمشاعر الانتماء والتضامن مع تصاعد المد القومى العربى وطموحات لا حدود لها تسكن ضمائر الشعوب العربية بأحلام الوحدة وتحرير إرادة وأراضى الأمة.. وفى ذلك الوقت كانت قوة مصر تعنى النهوض بمستويات التنمية وعلى نحو استحق تقدير العالم لتجربة التنمية المصرية والتى اعتبرها البنك الدولى نموذجا فريدا لخطة تنمية لم تعتمد على أية مساعدات خارجية وحققت نسبة نمو متوسطها ٦,٧٪ خلال الفترة من ١٩٥٧ ـ ١٩٦٧ وشهدت هذه الفترة أيضا انطلاقة جديدة لقاعدة الصناعات الحربية المصرية واهتماما بالتعاون مع الدول الصديقة فى مجالات الذرة وإنتاج الطائرات واستطاعت العقول المصرية أن تحقق تقدما فى مجال الصواريخ وصنع المحركات النفاثة ويشهد بذلك عدد كبير من أساتذة كليات الهندسة بجامعتى القاهرة وعين

شمس والذين شاركوا فى هذه الملحمة لبناء قوة مصر العسكرية.

وبدأت إسرائيل فى إعداد خطوط استراتيجيتها العامة والتى تعتمد على محورين متوازيين يمثلان الأساس وأهداف التحرك ـ وهما حسب تعبير الأستاذ هيكل.

١ ـ سوريا هى عنصر الإثارة الذى يمكن استغلاله.

٢ ـ ومصر هى مركز الثقل الذى يتحتم ضربه.

أى إشعال الموقف على الجبهة السورية وبما يفرض على مصر أن تقوم بأى عمل لنجدة سوريا.. وهكذا بدأت أجواء مناخ ملتهب فى المنطقة تنذر باشتعال النيران.. وبدأ منتصف عام ١٩٦٦ يدفع أمامه بالتوتر على الخطوط الإسرائيلية مع سوريا، وسحبت الشهور التالية ـ معها ـ مناوشات متقطعة.. ثم بدأت الرياح الساخنة تهب مع تصاعد حدة التهديدات والتصريحات ومنها كلمات "ليفى أشكول" أمام الكنيست الإسرائيلى "أن إسرائيل قررت أن ترد بالطريقة التى تراها ملائمة على سوريا وأن الطريق إلى دمشق مفتوح".. ثم تداعت مشاهد القصة المعروفة وإلى الفصل الأخير منها الذى يتضمن هزيمة ١٩٦٧ وتدمير آليات القدرة العسكرية وتدمير وتهجير المدن المصرية على خط القناة.. وأصاب الدوار المفاجئ كل شىء، وكانت الضربة موجعة مؤثرة ونافذة بالنسبة لخطط وطموحات التنمية.. وأصبح التركيز منصبا على إعادة بناء القوات المسلحة وكانت الأعباء متضاعفة وشاقة..

وتصورات إسرائيل ومن معها من كلاب الصيد ـ أنها حققت الهدف.. وأن قوة مصر انتهت وأن الدور المصرى انسحب مهزوما

مخذولا منكسرا ـ أو على أقل تقدير ـ أن الدور وعناصر القوة قد تم حشرهما فى دائرة التجميد والتأجيل إلى زمن غير منظور. . وحتى حقق الجيش المصرى بمعجزة الصمود والتخطيط والتنفيذ ـ انتصار إرادة الدور المصرى. . انتصار "القوة" المصرية والعبور بالأمة العربية من حال إلى حال، من "وجيعة النكسة والهزيمة" إلى "نشوة" الانتصار باسترداد الكرامة، والتأكيد عل أن فكرة المستقبل العربى لم تهزم.

. . . .

والشاهد. . أن القوى الدولية الطامعة وعلى رأسها القوة الغالبة الأولى فى العالم. . ـ الولايات المتحدة الأمريكية ـ كانت ترى أهمية تحويل دور مصر إلى مجرد وظيفة تكلف بها!! وأتصور أنه أمر طبيعى ومنطقى جدا أن تمارس أمريكا ضغوطها السياسية والاقتصادية والإعلامية فى محاولة لحصار دور مصر داخل حدود الوظيفة المكلف بها وعند الضرورة وفقا للمصالح الأمريكية!! وهناك فارق كبير بالطبع بين الدور والوظيفة. . فالدور يجسد حركة وقوة غير محدودة وغير محددة، وفعل مؤثر فى منطقة شاسعة تتعدى حدود الدولة. . أما الوظيفة فهى مجرد مهمة مؤقتة سياسية أو دبلوماسية تخضع لحسابات معروفة يمكن تقديرها. . وإذا كانت الولايات المتحدة لا تقنع بأقل من دور الوصاية الكاملة على هذا الكوكب، فكيف يكون هناك دور فاعل ومؤثر لدولة أخرى فى محيط العالم الثالث. . وهى تدرك تماما وتعرف معرفة يقين لا معرفة ظن واجتهاد أن هذه الدولة "مصر" ومنذ البداية كانت القوة الركن فى هذا العالم والقطب الرائد فى ذلك المحيط السكانى من نصف الكرة الجنوبى. . والولايات المتحدة تسعى لفرض تصور جديد بأن يكون الدور

فى حالة غيـاب وأن تكون الوظيفة فى حالة حضـور عند الطلب!! وهى أيضا لا تسمح أو لا تقبل بوجـود قوة أوسع من حدود دولة، والمسموح به فى هذا النطاق فقط هو التعامـل مع دولة لها حدود وإمكانيات يمكن حسابها وتقديرها وتوظيفها عند الضرورة..

وفى مطـلع السبـعينيـات كان "هنرى كـيسنجـر" ـ وزير الخارجـية الأمريكى الأسبـق ـ واحدا من الذين رأوا هذه القضيـة بوضوح وعمق، وساعدته الظروف على النفاذ إلى تحقيق هدف عجز غيره عن تحقيقه وهو عزل مـصر عن الحـركة التـاريخيـة لدورها وعن القـوة الكامنـة فى هذا الدور، ولأنه أدرك إذا ظلـت مصر قوة أوسـع من حدود دولة وتجسـيدا لتيار القـومية العربية والحركة التـاريخية لهذا التيار فـإن الولايات المتحدة ستكون فى حاجة إلى مصـر لحل أزمة الشرق الأوسط.. وإذا استطاع أن يحول مصر إلى حدود وتعداد سكان ومجرد قوة ظاهرة بإمكانيات يمكن حسابها فـإن مصر هى التى ستكون فى حاجة إلـى الولايات المتحدة لحل أزمة الشرق الأوسط.. وعند مـنتصف السبعينيات وحولـها كانت النوايا واضحة بإبقاء مصر ضعيفة.. إبقاء مصر معزولة عن بقية العالم العربى، لا تشعر حتى مجرد شعور أولى أنها جزء من كل!!

والحال هكذا.. فـإن دور مصر أصبح مثـيرا جدا للثيران الأمـريكية الهائجة.. وإن كـانت الولايات المتحدة بالفعل فـى حاجة إلى هذا الدور ولكن ليس بمـفهوم دور يرتكز إلى دور.. أو دورا يسـاند دورا.. ولكن بمفهـوم الدور والوظيفـة وفى إطار التكليـف.. فالولايات المتحـدة التى تتطلع إلى السيطرة العالمية المطلقة تتصور أن نفوذ دورها هو الغالب وبعد أن تحولت عناصر القوة فى يدها إلى أعـلى مراحل غرور القوة حتى تكاد

تتوهم أن رسالة دورها حق إلهى مقدس، ويبدو أنها لا تقنع بغير هذا مع السماح فقط لدور الظل للقوى الكبرى الأخرى بريطانيا، فرنسا، ألمانيا، أو حتى مجموع قوى الاتحاد الأوروبى.. أما فى العالم الثالث فإن أى دور متوقع أو مسموح به فهو مجرد "وظيفة" تحدد مهامها وأعبائها وحساباتها الولايات المتحدة نفسها وبما تتطلب المصالح الأمريكية وحركة الدور الأمريكى!! فهم يعتقدون مثلا أن دور مصر فى أزمة الخليج الثانية ١٩٩٠ كان مجرد وظيفة مدفوعة الثمن فى صورة إسقاط نصف الديون المستحقة على مصر!! فقد كانت الولايات المتحدة تريد ضمان وجود قبول عربى وصمت عربى على الأقل يسهل تواجد دور قوات التحالف الدولية فى المنطقة العربية لتحرير الكويت وردع العراق، ثم بالضرورة وجود قبول واسع لأى اتفاق يتم التوصل إليه لتأديب العراق تحت رعاية التواجد الأمنى الغربى بقيادة الولايات المتحدة!!

وكانت هذه هى الخطوط التى سارت عليها أفكارهم وتحليلاتهم وتقديراتهم ـ فيما بعد ـ بالنسبة لحقيقة الدور المصرى.

وعلى هذا الأساس راحوا يستعرضون عضلاتهم قبل أفكارهم.. ولقد خطر لهم أن مصر فى النهاية مجرد دولة لها حدود وإمكانات يمكن حسابها جيدا، وهى قبل كل هذا دولة مستقبلة وباحثة عن المعونات والمساعدات الأمريكية وهذا عنصر لا يقبل المزيد من التعليق، وبالضرورة فهى دولة تسبح فى نطاق التبعية، وأنه لمنطقى جدا أن تقوم بمهام "الوظيفة" إذا احتاج "دور" الدولة العظمى ذلك وبمنطق التكليف لا بمفهوم المساندة أو الدور الموازى.. ولا يسمح ـ مطلقا بالخروج عن النص ـ وعلى سبيل المثال كانت الحملة الإعلامية الأمريكية ـ فى الشهور

الأخيرة من الولاية الأخيرة للرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون ـ والتى قادها الكاتب فريدمان المقرب للإدارة الأمريكية وجماعات الضغط اليهودية وباعتبار أن مصر قد تجاوزت كل الحدود حين تجاهلت القيام بوظيفة تمهيد الأجواء والأراضى العربية للضغوط الأمريكية على المفاوض الفلسطينى ليقبل عروض ومقترحات قمة كامب ديفيد الثانية والتى كانت على وشك النجاح لولا انفلات الفعل السياسى المصرى بعيدا عن الرؤية الأمريكية!! وأن مصر لم تقدم المقابل للمساعدات والمعونات الأمريكية!! وأتصور أن لهذه الرؤية الأمريكية عدة معان ومدلولات مباشرة وبالغة الخطورة.. وهى إجمالا تدور حول التكليف بمهام الوظيفة عند الضرورة، فهم يتوقعون من مصر مثلا التحرك من أجل توفير دعم عربى إسلامى لأى اتفاق يتوصل إليه الفلسطينيون مع الجانب الإسرائيلى وبرعاية أمريكية.. وهذا هو المتاح والمسموح به.. وبمعنى أن تتخلى مصر عن دورها وعن الحركة التاريخية التى تجسدت فيها، وأن ترهن مواقفها بالرضاء الأمريكى!! وأن على مصر أن تتجاهل حقائق استراتيجية ضخمة ـ دورها.. ومسئولية هذا الدور ـ فى سبيل الفوز فى ألعاب تكتيكية لا قيمة لها!!

. . . .

. . . .

والرؤية الشاملة والموضوعية لأصول وجذور القضية على مسار العلاقات المصرية الأمريكية حددها الدكتور جمال حمدان من زاوية "أن مصير الصراع العربى الإسرائيلى سيتوقف أساسا على قوة مصر خاصة بين العرب..وأن مصير عدم الانحياز والعالم الثالث سيتوقف فى

التحليل الأخير على مصير مصر.. وأن مصير الإمبريالية العالمية سيتوقف على مصير إسرائيل.. ويترتب على هذا أيضا أن القطبين النهائيين فى الصراع بين الإمبريالية والعالم الثالث هما على الترتيب: الولايات المتحدة ومصر، ولا غرابة فى هذا فكل منهما يلخص زعامة مجموعته، إلى جانب أنه يفسر تركيز العدوانية الأمريكية على مصر بالذات.. وهذا العداء إذ يقوم بين أقدم دولة هامة فى التاريخ وبين أحدث دولة هامة فى التاريخ.. قد فرضته أمريكا فرضا غير مفهوم وغير عادل"..

وماذا بقى ليقال بعد ذلك التوصيف الدقيق؟!

المهم: أن دور مصر سيظل مثيرا لحساسية السياسة الأمريكية طالما تعدى من وجهة نظرهم حدود الوظيفة.. وإن الصداقة والمصالح المشتركة لا تعنى أن يكون هناك دور يجابه ويوازى أو حتى يساند دور الإمبراطورية العظمى، ولكن هناك وظيفة يمكن القيام بمهامها وفقا للرؤية والمصلحة الأمريكية.. وتلك هى القضية التى تخلق أحيانا أزمات مكتومة وأحيانا أخرى كثيرة حملات إعلامية سافرة!!

وهناك ـ لكى لا نخطئ ـ ظروف كثيرة وتحت ضغوط خارجية، وفى ظل حالة من السيولة الفكرية، و" المثالية " السياسية، أو بمعنى إدعاء الحكمة ـ وهو كما يقولون إدعاء تضيق به الصدور ـ وهناك أسباب أخرى خارجية وداخلية، أصبحنا معها نتجاهل دورنا، ومفهوم وقدرات وحدود الدور وتأثيره، والحركة التاريخية له.. وإلى تلك الدرجة التى جعلتنا ـ عل سبيل المثال ـ نفتح أبواب الحوار والمناقشة فى مطلع عام ٢٠٠٠ مع الكاتب الأمريكى اليهودى "توماس فريدماى" المقرب من الإدارة الأمريكية الجمهورية ـ وهو يطرح رؤيته حول المطلوب من مصر فى

مرحلة ما بعد السلام، وحتى لا تصبح مصر "تايوان" أخرى!! ودخل كثيرون ممن يحملون لقب النخبة من المفكرين والمثقفين المصريين فى جدل عقيم مع "فريدمان" حول دور مصر، والإفتاء بالتصورات والتوقعات.. وهذا فى حد ذاته فعل مؤسف!! وقد سبقت "أوهام" الكاتب الأمريكى فريدمان، تصورات "شيمعون بيريز" رئيس الحكومة الإسرائيلية وقتئذ، ورئيس الدولة العبرية حاليا ـ بأن المستقبل لدور إسرائيل فى المنطقة، وهو دور ـ كما يزعم ـ يرتبط بحقائق القدرات والإمكانيات، وبصورة " جزيرة غنية ديمقراطية " وسط محيط فقير عشوائى.. وإلى هذه الدرجة بلغت أوهام "بيريز"!!

. . . .

. . . .

وبهذا النوع من الأفكار يتحدثون عن دور مصر!؟

وأحيانا أعذرهم.. فليسوا وحدهم الذين لا يعرفون ما هو سر هذا الدور؟ وأن حسابات وحقائق وعلاقات وموازين الدور المصرى أعقد بكثير من مجرد معادلات وتصورات يطرحونها برغبة ملهوفة لإخضاع الدور لشروط ومتطلبات المنافسة كما يتصورون.. ولشعارات جديدة تمارس نشاطها بالتشكيك فى هذا الدور القيادى!! وهى فى الجملة وجهات نظر يتم تسويقها فى "مناسبات" شبه موسمية أحيانا، وفقا لما يجرى على الساحة السياسية من أحداث ووقائع.. ولذلك فهى رؤية ذات طبيعة خاصة تكشف أفكار ومواقف أصحابها.. سواء كان "توماس فريدمان" المبشر بطوفان العولمة وسيولها الجارفة وملامحها الأمريكية الكاسحة التى تفرض على مصر الاستجابة لحركتها وإلا تحولت إلى "تايوان" جديدة كجزيرة منعزلة محاصرة بلا دور!! أو "بيريز" المنظر

لكيان الشرق أوسطيـة والدور الاقتصادى الفاعل للتعـاون الإقليمى تقوده جزيرة غنية نظيفة وسط محيط فـقير وقذر.. متصورا أن الدور فى مجال القوة والقدرة هو لإسرائيل، وأن دور مصر فى المرحلة القادمة سوف يفقد مهـامه ووظيـفته فـى محيط آلـيات السـوق العالمى وسـلطان الاقتـصاد وبالضرورة فـإن أى دور لا يؤدى وظيفتـه ينكمش ويضمـر وذلك قانون البقاء ذاته!؟!

هذه بعض التصورات وعلى قائمة حسابات الوهم!!

وهى تصورات بالوهم وبسوء النوايا.. تخلط بين الدور، وبين مهام "الوظيفة".. وتبنـى أحكامها على "الدور" فى لحظة تاريخيـة بعينها أو مع مرحلة وحقبة زمنية محددة!! ولـكن دور مصر ـ يبقى ـ ومهما كانت تأثيرات وانطـباعات حقبة زمنـية معينة تعـيشها، (وعلى سبـيل المثال فى الزمن المـصرى المعاصـر استمـرت هذه الحقـبة أكثـر من ٣٥ عامـا ومنذ السنوات الأخـيرة لحكم الرئيـس السادات وطوال ثلاثة عـقود فيمـا بعد خلال حكم الرئيس المخلوع محمد حسـنى مبارك).. ومهما كان حجم الضغوط الخارجية أو الاستسلام لها، ومهما كانت قوة العواصف والرياح التى تهب بمتغيـرات ومستجدات طارئة، أو مهما كـانت درجة تفاعلات واحتكاكات حـركة موازين القوى فى العـالم.. تبقى مصر ـ كـما يقول العـالم الجليل الراحـل الدكتور جـمال حـمدان ـ أقدم وأعـرق دولة فى الجغرافيا السياسية فى العالم، وهى غـير قابلة للقسمة على اثنين أو أكثر مهما كانت قوة الضغط والحـرارة.. ومصر هى "قدس أقداس" السياسة العالمية والجغرافيـا السياسية كما أن مصر السياسيـة هى من خلق الجغرافيا الطبيعية فهى نبت طبيعى بحت.